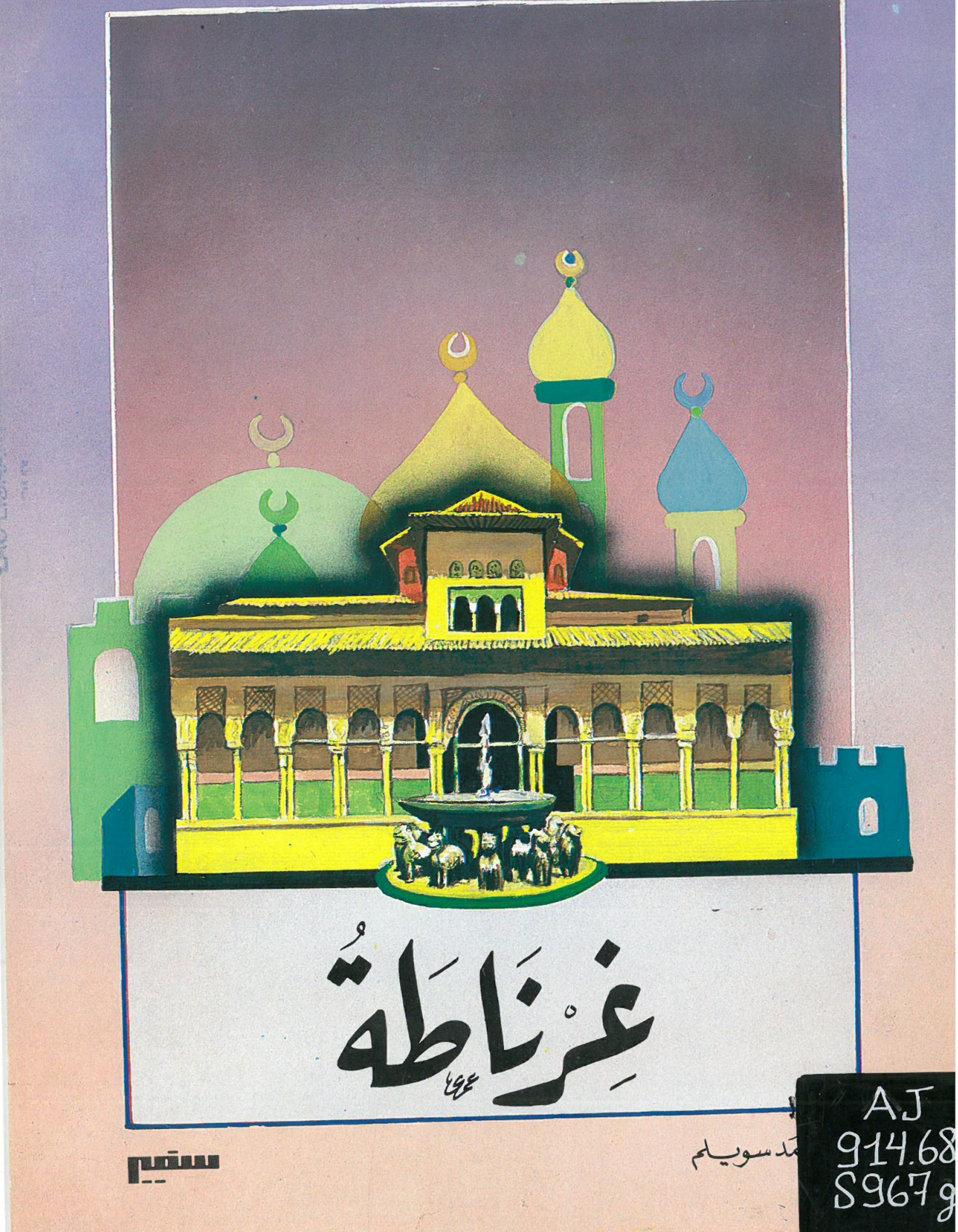


مدائن إسلامية (٨)
من سن ٨ : ١٢
غِرْنَاطَةُ
مد سويلم
سفير

مدائن إسلامية

(٨)



أحمد سويلم

رسوم
سعيد عمرى

إنتاج وحدة ثقافة الطفل بشركة سفير





رقم الإيداع : ٩٣/١٠٢٩١
الترقيم الدولي : 977-261-274-7

ذات مساء ، سأل سعيد أباه إذا كان لديه فى مكتبته أى كتب فى تاريخ الأندلس .. ومدنها .. مد أبوه يده إلى رف فى المكتبة .. وأحضر له كتابين : كتابًا عن تاريخ العرب فى الأندلس .. وكتابًا عن مدينة غرناطة .

جلس سعيد يلتهم الكتابين فى متعة وسعادة ويلخص ما قرأه لعمل موضوع عن حضارة المسلمين فى بلاد الأندلس .. لاحظ أبوه ذلك فاقترب منه قائلا :

– أتحب أن تزور إسبانيا يا سعيد ؟

قفز سعيد من مقعده غير مصدق :

– حقا يا أبى ؟!

قال الأب وهو يربت على ظهر ولده :

– بشرط .

قال سعيد فى لهفة :

– أنا مستعد لأى شرط إن شاء الله .

قال الأب :

– أن تتفوق فى دراستك وتكون مكافأتك السفر معى إلى إسبانيا فى إجازتك الصيفية .

قاطعه سعيد : وأزور غرناطة ؟

قال الأب : وتزور غرناطة .. وقرطبة .. وإشبيلية .. ومدريد .. أربع مدن يا سعيد فى عشرة أيام .. ما رأيك ؟

قال سعيد فى حماسة : أعدك يا أبى .

يعلم سعيد أنه مجتهد والحمد لله .. لكنه سيضاعف جهده ليكون أكثر تفوقًا ويستحق مكافأته .

ويأتى يوم السفر بعد أن تفوق سعيد تفوقًا ملحوظًا .. وها هو الآن يجلس بجوار أبيه مع

أفراد الفوج فى الطائرة .. ومعه كتيب صغير يلخص تاريخ إسبانيا .

كانت تعرف قديمًا باسم بلاد الأندلس – والتى كانت تشمل كل البرتغال تقريبًا وأكثر إسبانيا أيام الخلافة الإسلامية – وأصل كلمة الأندلس مأخوذ من اسم قبائل الوندال الجرمانية التى احتلت شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) وسمَّتها باسم «فاندليسيا» أى بلاد الوندال ثم نطقت بالعربية الأندلس .

وتطلق اليوم كلمة أندلُثيا باللغة الإسبانية على المنطقة الجنوبية من إسبانيا الحالية والتى تحوى مدنًا وقرى لا تزال تحتفظ بأسمائها التى لها فى أسماعنا وتاريخنا وقع عظيم مثل : قرطبة وإشبيلية ، ومرسية ، وألمرية ، ومالقة ، وغرناطة .. وغيرها من المدن والقرى ذات التاريخ الإسلامى العريق .

وتجرى فى الأندلس عدة أنهار، أهمها : الوادى الكبير.. وينطق هكذا فى اللغة الإسبانية مع تعريف يسير فيقولون (جواد الكبير) .. ثم نهر الوادى اليانع ، ويسمى بالإسبانية (جوادیانا).. ثم نهر التاجة ويسميه الإسبان (التاخة) .

ويقرأ سعيد هذه الملاحظة التى أدهشته كثيراً .

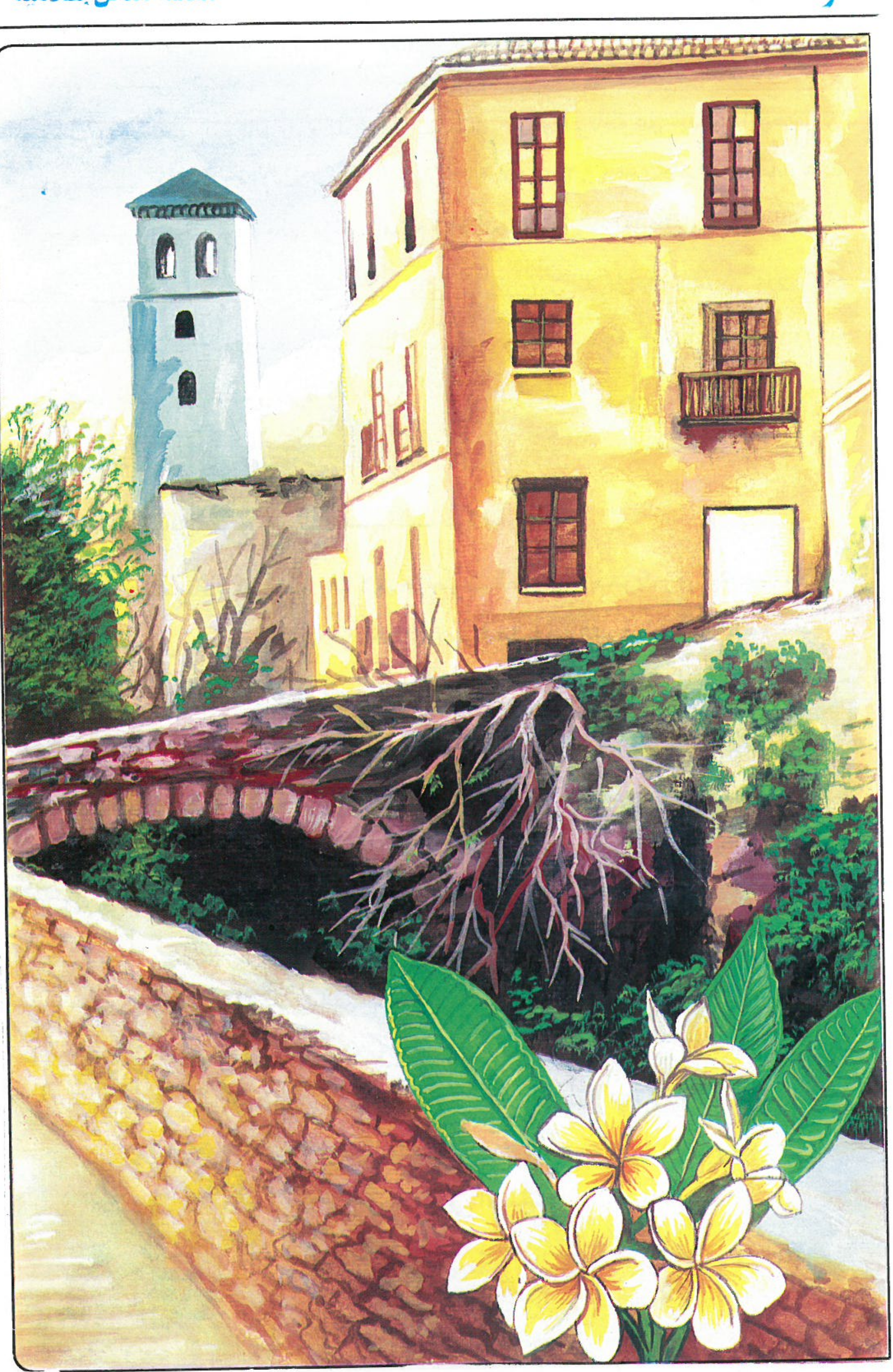
– إن اللغة الإسبانية تتضمن كثيراًمن الكلمات العربية مازالت باقية فيها حتى الآن .

ويهبط الفوج مدريد – عاصمة إسبانيا – وعلى الفور أخذ المرافق يحكى باختصار تاريخ الأندلس .

كان الفتح الإسلامى عام (٩٢ هـ = ٧١١م) على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير وآخرين وذلك بعد أن دان لهم الشمال الإفريقى وأرسوا كلمة التوحيدونشروارسالة الإسلام الحنيف فى جميع ربوعها وتوالى فتح البلدان الأندلسية واحدة تلو الأخرى حتى وصل الجيش الإسلامى الفاتح إلى مشارف فرنسا .

وقد مرت الأندلس بعد أن تم الفتح الإسلامى لها عام (٩٥ هـ = ٧١٤م) بعدة عصور تقلبت خلالها بين الضعف والقوة وبين النصر والهزيمة منها :

عصر الولاة والذى انتهى بقيام دولة بنى أمية على يد عبدالرحمن الداخل (١٣٨هـ =



نهر دارو الذى يفصل بين حى البيازين وقصور الحمراء

٧٥٥م) ، عصر الخلافة الأموية ، وعصر ملوك الطوائف ، وعصر المرابطين ، وعصر الموحدين ، والعصر الغرناطى ، والذى يبدأ بتأسيس مملكة غرناطة على يد ابن الأحمر .. وينتهى بتسليم هذه المدينة الإسلامية إلى الإسبان (٨٩٧ هـ = ١٤٩٢م) كانت تلك معلومات تاريخية سريعة ومختصرة ، قالها مرافق الفوج أثناء التجوال بين المدن المختلفة .

كان سعيد يتطلع إلى زيارة مدينة غرناطة .. وكانت هى خاتمة الرحلة .. وكلما كان الفوج يمر ببلد ما .. يدون سعيد ملاحظاته .. ويصور بآلة التصوير صوراً للذكرى ، لكنه كان يدخر الكثير من الصور لغرناطة .

ها هم قد هبطوا إلى غرناطة .

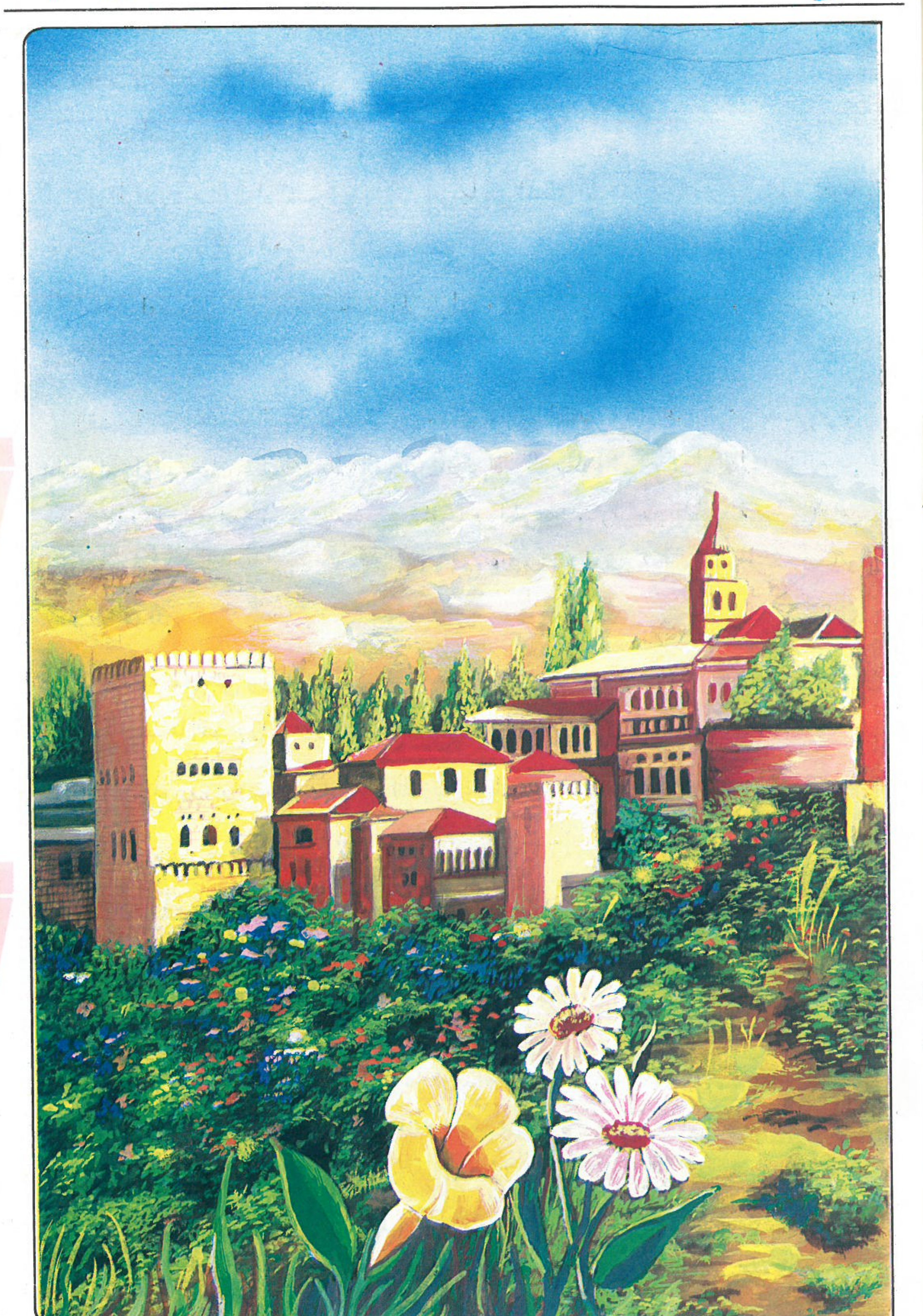
ويتحدث مرافق الفوج عن تلك المدينة الساحرة فيقول :

تقع مدينة غرناطة على بعد ٢٦٧ ميلا جنوب العاصمة مدريد وهى إحدى ولايات الجنوب الإسبانى .. ويحد المدينة من الجنوب نهر شنيل ومن الشرق بساتين قصور الحمراء وتلها العالى .. وهى تعلو قرابة ٦٦٩ متراً فوق سطح البحر.. ويعنى اسمها بالإسبانية (رمانة)؛ وذلك لحسنها وجمالها .

ولا شك أن عظمة مدينة غرناطة وازدهارها يرجع إلى أسرة بنى الأحمر وذلك بعد أن دخل محمد بن يوسف بن نصر والى أرجونة والمعروف باسم ابن الأحمر مدينة غرناطة عام (٦٣٥ هـ = ١٢٣٨م) استجابة لدعوة أهلها الذين خشوا على مدينتهم من اعتداء الجيوش النصرانية .. ومنذ ذلك الحين أصبحت غرناطة عاصمة لمملكة بنى الأحمر، فرحل إليها الآلاف من المهاجرين المسلمين الذين فروا من البلاد التى سقطت فى أيدى الإسبان ، وقد حصن ابن الأحمر غرناطة تحصينًا منيعًا واستطاع أن يصد هجمات الجيوش النصرانية بقوة .. وظلت غرناطة حصناً شامخاً ومعقلا للإسلام فى بلاد الأندلس مدة تزيد على المئتين والستين سنة حتى سقطت فى قبضة الجيوش النصرانية عام (٨٩٧ هـ = ١٤٩٢م) . وبسقوط غرناطة ينتهى آخر مظهر من مظاهر السيادة الإسلامية فى الأندلس .

ويتحرك الفوج إلى مشهد خلاب جميل يحكى عظمة المسلمين .. إنه قصر الحمراء .. أو ما يطلق عليه بالإسبانية (الهمراء) .

غرناطة
سلسلة مدائن إسلامية



قصر الحمراء

ويسرع سعيد بسؤال المرافق :

– لماذا أطلق عليه قصر الحمراء ؟

قال المرافق : هناك آراء كثيرة يا بنى .. أقربها إلى المنطق أن هذا الاسم أطلق عليه للون حجارته الضارب إلى الحمرة .

والحمراء مجموعة أبنية محاطة بأسوار طولها ٧٤٠ متراً وعرضها ٢٠٠ متر.. وهى ثلاثة أقسام :

القصبة الجديدة أو القسم العسكرى شمال شرقى القصر وهى عبارة عن قلعة تحرس الحمراء ولها برجان عظيمان ، ثم القصر الملكى فى الوسط ، ثم الحمراء العليا المؤلفة من مجموعة بيوت متهدمة ، كانت مخصصة للخدم والحرفيين .. ويرجع بناء منطقة الحمراء إلى محمد بن الأحمر عام (٦٣٥هـ = ١٢٣٨م) عندما وضع فى هذا الوضع المرتفع أساس حصنه الجديد .

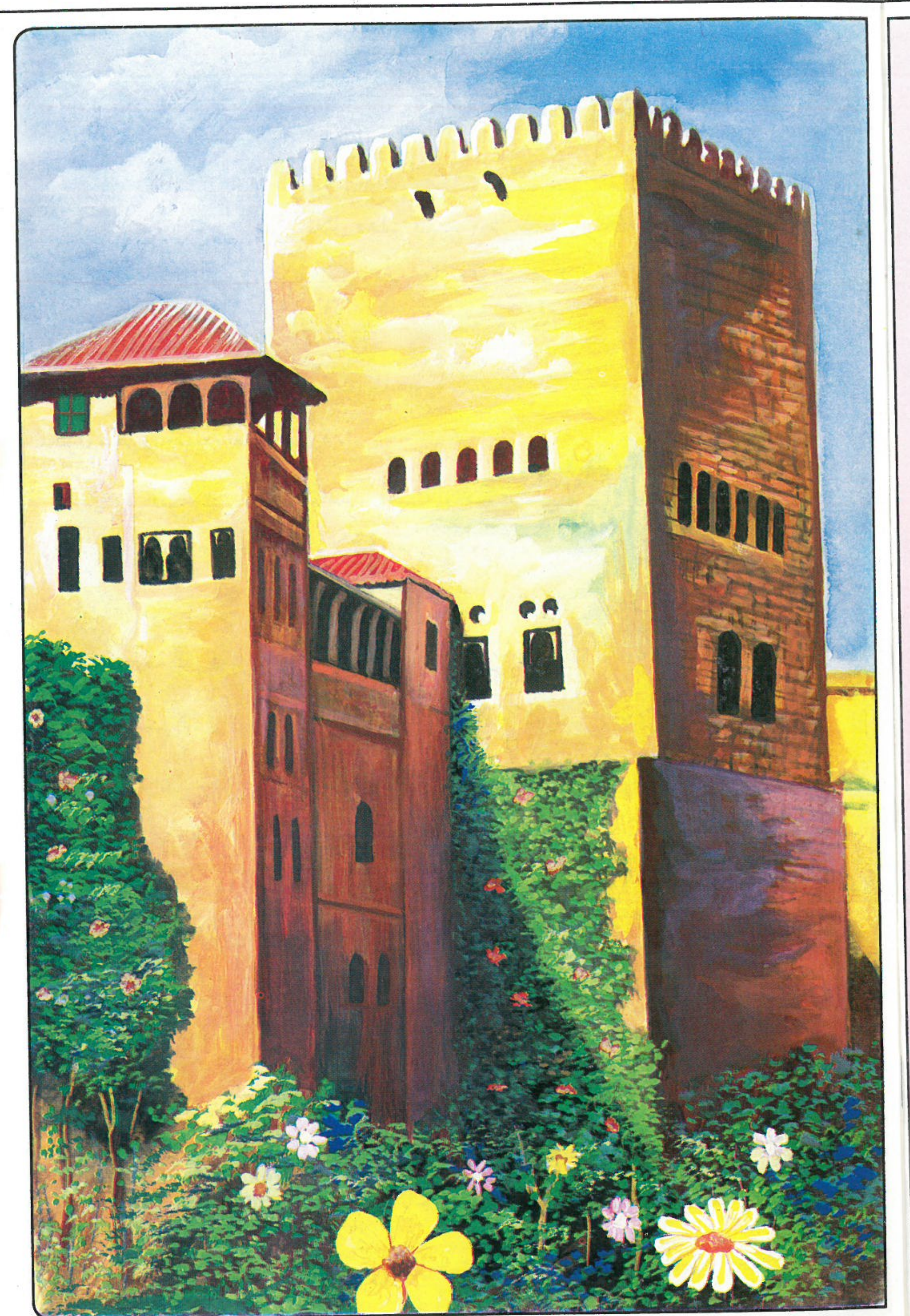
والمنطقة تقع على ربوة عالية تسمى السبيكة فى الجانب الشمالى الشرقى من مدينة غرناطة صعدها الفوج راكباً بين تلال تكسوها أشجار جميلة وأزهار مختلفة الألوان .

وللحمراء عدة أبواب أهمها : باب الشريعة – باب السلاح – باب الحديد .

وقف سعيد مبهوراً أمام الحمراء .. يحدث نفسه :

– ماهذا الحصن المنيع ؟ وما هذه الأسوار العالية .. والأبراج الكبيرة التى تحيط الحمراء .. والتى بُنيت بفن العمارة الإسلامية المتميزة ؟

ويلحق سعيد الفوج وهو يدخل من باب الشريعة . . وهو المدخل الرئيسى لقصر الحمراء ويقرأ سعيد هذه العبارة المكتوبة بالعربية فوق الباب : أمر ببناء هذا الباب المُسمَّى الشريعة أسعد الله به شريعة الإسلام كما جعله فخراً باقيًا على الأيام .. مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف بن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبى الوليد بن نصر كافى الله فى الإسلام صنائعه الزاكية .. وتقبل أعماله الجهادية .. فتيسر ذلك فى شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة جعله الله عزة وافية .. وكتبه فى الأعمال الصالحة الباقية ..



برج قمارش

ويفسر مرافق الفوج ماوراء اسم باب الشريعة فيقول :

كان القضاة المسلمون يجلسون عند هذا الباب للقضاء .. يفصلون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ويتحرك الفوج إلى أعلى خلال دهليز قصير حتى يصل إلى قاعة (المشور) وهو المكان الذى خُصص فى القصر للموظفين الذين يعاونون السلطان فى إدارة شئون الدولة وقد تم إنشاؤه عام (١٣٦٥م) .

ولقد لاحظ سعيد بعض النقوش المذهبة ولكنها باهتة .. وصمم على أن يصورها بآلته لتكون ذكرى جميلة لهذه الزيارة .

ثم ينتقل الفوج إلى خلف القاعة .. حيث يوجد مصلى لا يزال يحتفظ بمحرابه الجميل وعليه عبارة (أقبل على صلاتك ولا تكن من الغافلين) .

ويترك الفوج المشور إلى القسم الثانى من القصر والذى كان يُعرف باسم (الديوان) وكان يشمل : ساحة البركة وقاعة البركة وقاعة العرش وقاعة السفراء ..

وهذا القسم لا يزال يحتفظ بمظهره القديم إلى حد كبير .

ثم يتجه الفوج إلى بهو الأسود وهو أروع أجنحة القصر .. وهذا البهو عبارة عن فناء يحيط به ممر .. ومن حوله القاعات والغرف .. وفى وسطه نافورة لاثنى عشر أسداً يرتفع كل منها قدمين ونصفًا ، وقد أنشأ هذا البهو السلطان محمد الغنى بالله الذى تولى السلطنة عام (٧٥٥هـ = ١٣٥٤م) .

ولا ينس سعيداً أن يقف بين الأسود طالبًا من أحد أصدقائه فى الفوج أن يلتقط له صورة فى وسط النافورة .

ثم يدخل الفوج أهم القاعات المجاورة لبهو الأسود المسماه بقاعة الأختين التى تعلوها قبة جميلة تزينها الزخارف الملونة وقد سميت القاعة بهذا الاسم لأن أرضها تحتوى على قطعتين متساويتين من الرخام نقش عند مدخلها بالخط الكوفى (**ولا غالب إلا الله**)

ثم يدخل الفوج دار عائشة وهى تلك السلطانة الحرة زوجة السلطان الغالب بالله ..



بهو الأسود

ووالدة آخر سلاطين بنى الأحمر .

ويقف سعيد مبهوراً لتخيل تلك السلطانة يوم كان زوجها قويا مهيباً يخرج لحرب الإسبان ثم يعود منتصراً وهى تستقبله استقبالا حافلا .

ثم يتجه الفوج إلى حمام القصر – ويتذكر سعيد حين يراه حمامات القاهرة فى عصر المماليك – وهو يتكون من الاستراحة .. والغرفة الدافئة .. والغرفة الساخنة . لقد مكث الفوج أكثر من ثلاث ساعات يطوف بجمال الحمراء وما تبقى من آثارها الإسلامية .. وسعيد يسجل ذلك بالقلم وبآلة التصوير ويزداد معرفة بالتاريخ .

ويلاحظ سعيد أن حول قصر الحمراء ..ترتفع عدة مبانٍ أخرى تشرف على أودية واسعة .

ويلاحقه مرافق الفوج :

– إنه قصر جنة العريف الذى شيد فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى .. ويقع القصر شمال شرقى قصر الحمراء فوق ربوة مستقلة .. وقد أقام قصورها سلاطين غرناطة رغبة فى التمتع بالهدوء وجمال الطبيعة .

ويهبط الفوج من الحمراء إلى ما تبقى من أسوار غرناطة القديمة : باب البيازين – باب فحص اللوز – باب الزيادة .

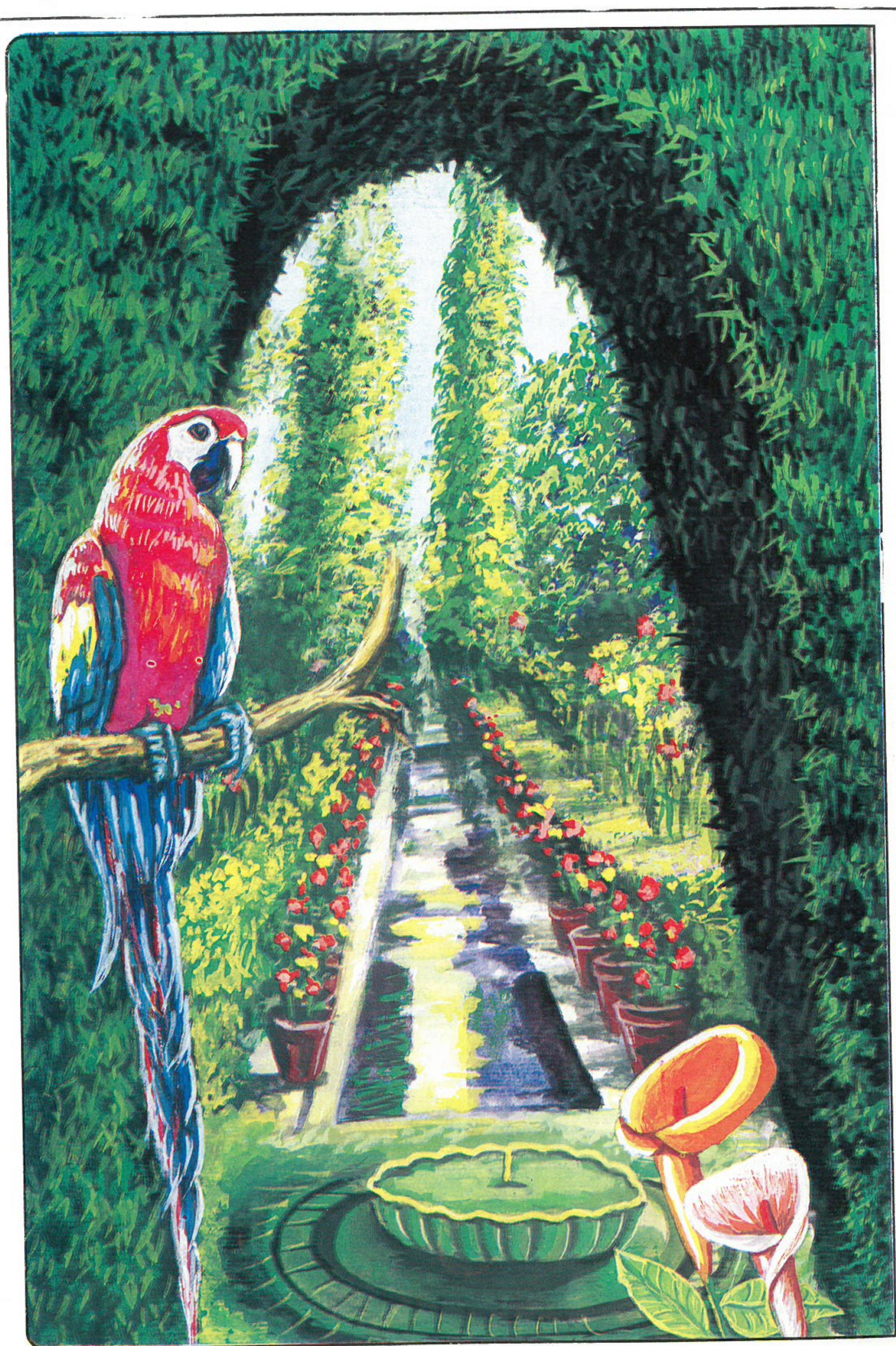
ويلاحظ سعيد بقية من أسوار المسجد الجامع .. فيسأل عن ذلك .

قال المرافق : لقد شيدت على أنقاض هذا المسجد كنيسة سانت ماريا .. وسنجد ذلك كثيراً فى الأندلس .. تعبيراً عن انتقام الإسبان من المسلمين .. لكن ألا ترى يا سعيد مئذنة المسجد القديم لا تزال قائمة أمامك .

حزن سعيد لما آلت إليه حضارة المسلمين فى الأندلس وأراد أن يزور أماكن أخرى تحتفظ بعطر الماضى .

أشار مرافق الفوج إلى مكان ما وقال :

– كانت هنا مدرسة غرناطة القديمة التى أنشأها السلطان يوسف أبو الحجاج (٧٥٠ هـ = ١٤٣٩ م) وفى الشمال هنا كان يوجد مستشفى عام .



جنة العريف

ويحاول مرافق الفوج أن يخفف عن سعيد ورفاقه تلك الذكريات السيئة التى تسبب فيها الإسبان .

– كانت غرناطة مركزاً إسلاميا علميا كبيراً .. واشتُهرت بالفنون والزخرفة وكان فيها مراكز للفقه والعلم واللغة والأدب .

وكانت غرناطة تشكل واحدة من حلقات الحضارة الإسلامية فى الأندلس مع المدن الأخرى : قرطبة – إشبيلية – طليطلة .. وغيرها .

ومن أشهر علماء وأدباء وشعراء غرناطة :

لسان الدين الخطيب ، والشاطبى ، والسرقسطى ، والشاعر ابن زمرك .

ومن علماء الفلك : أبو عبد الله الفحام المعروف بأبى خريطة ، والعالم الطبيب أبو مروان ابن زهر . كما نبغت من نساء غرناطة الكثيرات ، منهن : حفصة بنت الحاج ، وحمدونة بنت زياد وأختها زينب وغيرهن .

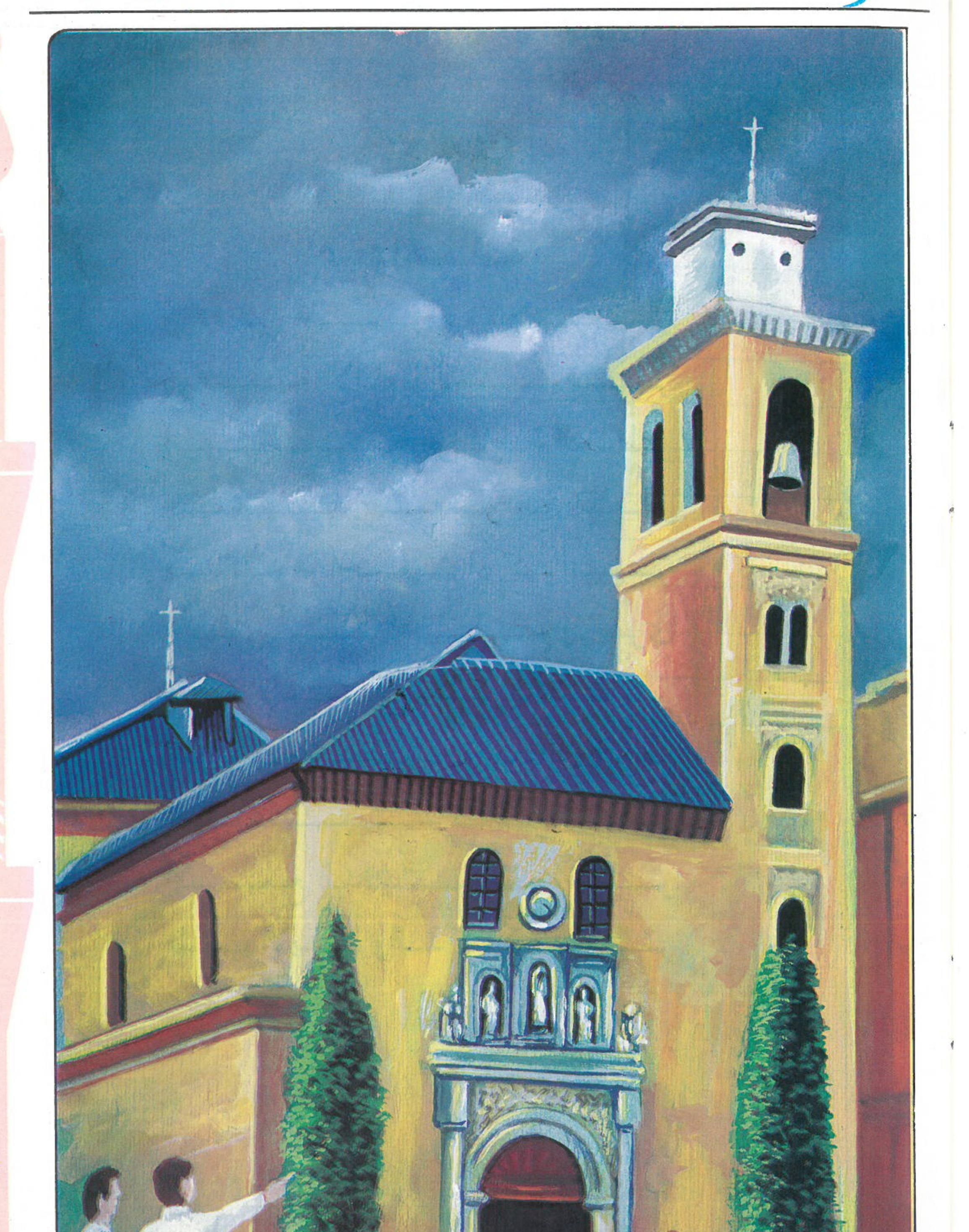
ولم ينسَ سعيد أن يطلب زيارة جامعة غرناطة التى تأسست فى القرن السادس عشر .. ودهش سعيد حينما دخل مكتبة الجامعة ليرى مخطوطات نادرة من القرن الرابع عشر .. والجامعة تتألف من عدة كليات حديثة .

ولاحظ أن اللغة العربية وآدابها موضع اهتمام كبير فى الجامعة .

كما لاحظ سعيد كذلك آثار التقاليد الإسلامية فى جميع مظاهر الحياة العمرانية .. فما زالت إسبانيا تحتفظ بتراث هائل من هذه التقاليد بفضل هذه الأصالة الإسلامية التى تأكدت طوال ثمانية قرون .

ويتأكد سعيد من ذلك كله حينما ينتهى من زيارة غرناطة ويحصل على ما يزيده معرفة بها وبتاريخها .

إنها رحلة لن ينساها سعيد .. تعرفه إحدى المدن الإسلامية التى لعبت دوراً كبيراً فى انتشار الإسلام والحضارة الإسلامية فى إسبانيا .



أحد مساجد غرناطة الذى حُول إلى كنيسة

هذه المدينة

وردةٌ فى عـــــروة الصـــــدر
روضـــــةُ الأنام والســـــحر
إنهـــــا غَرناطة العطر
حسنُهـــا يصـــفو مع البـــدر
قـــصرُها الحمـــراءُ كالتـــبر
هـــل رأيـــت الحـــلم إذ يَسْرى
ترفع الإســـلام كـــالنَّسر
شامـــخًا يســـمو مدى الدهر
هـــذه غـــــرناطة العطر
تجـــمع الدنيـــا على أمـــر
طيِّب الآيات والذكـــر

كان الإسلام -ولايزال- ضوءاً ساطعاً بالهدى والعلم والحضارة والتقدم . وحيثما كان يهبط هذا الضوء تُقام المآذن ويرتفع صوت الإيمان بالتهليل والتكبير ويرتفع الحق شامخاً فوق الباطل .

وهذه بعض المدائن الإسلامية التى لعبت دوراً تاريخيا فى انتشار الإسلام وتأكيد قيمه وإعلاء كلمته .نقدمها اليوم إلى الناشئة لتعرُّف هذه الملامح الخالدة لحضارة الإسلام .

اقرأ فى هذه السلسلة :

١ – مكة المكرمة	٥ – القيروان
٢ – المدينة المنورة	٦ – سرايفو
٣ – القدس	٧ – استانبول
٤ – الفسطاط	٨ – غرناطة

سفير ٥ ش جزيرة العرب -المهندسين- القاهرة
ت : ٣٤٩٤١٣٩ -٧٠٩٧٥٢ ص.ب ٤٢٥ الدقى - فاكس : ٣٤٨٠٢٩٩